الفصل الثاني

الفردوس المسموم

كانت الحرب / وعلى مدى ثلاثين عاماً/ دائرة في ايطاليا تحت حكم / بورغياس/ كما كان الرعب والقتل وسفك الدماء. وبعد ذلك أنجبت ايطاليا مايكل انجلو وليوناردو دافينشي وعصر النهضة. أما في سويسرا فكان الحب الأخوي وعاش الشعب هناك خمسمائة عام من الديمقراطية والسلام والسؤال هو ماذا أنجبت سويسرا؟ الساعات والمنبهات. هذا اقتباس من مسرحية الرجل الثالث، مثل دور هاري لايم الفنان ادرسون ويليس .

تبدو الحمراء مكان ساحراً إذ جعل السائحون منه مكاناً للمتعة والتعلم. من السهل بالنسبة لمن يسير حول الحمراء هذه الأيام أن يتخيل الوجود المبهرج للمورسكيين (العرب المسلمون الذين فتحوا الأندلس) الذين في فترة من الفترات سكنوا هذه المجمعات - بما فيه العطورات والصلوات والنساء - وجميعها عينة عن نعيم الآخرة أو الفردوس. كتب جيمس ديكي يقول إن غرناطة قبل سقوطها كانت جنة وفردوس. وبالرغم من كون هذه حقيقة من عدة أوجه إلا أن غرناطة من أوجه أخرى وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت نوعاً خاصاً من الجحيم وأن بعضاً من غرف ذلك الجحيم المُعتم موجودة داخل مجمعات الحمراء. إن مجمعات الحمراء هي بمثابة نصب تذكاري للقتل والعبودية والفقر والخوف .

مع حلول القرن الرابع عشر كانت العبودية قد اختفت من معظم دول غرب أوروبا إلا من أسبانيا. لقد بنيت قصور الحمراء على معاناة الحروب وعلى غنائم الحروب أيضاً. كان الأسرى المسيحيون يُعاملون كعبيد أو كخدم في مجمعاتها. إن الأبيات الشعرية التي تعود إلى القرن الربع عشر والمنقوشة على جدرانها تتباهى في هذه العبودية :

«وضعت الأغلال على أيدي الأسرى ووجدهم الغجر على أعتاب أبواب القصور عبيداً لكم».

كان العبيد يجزون ليلاً في سجون الكذابة (علماً أن هناك سجن آخر يقع على الطريق الرئيسي لمجمع القصر). كان السجن على الشكل المخروطي بمثابة منفى تحت الأرض وبالتحديد تحت برج المراقبة يردي لافيلا الموجود في الطريق الغربي من سجن الكذابة. وكان الطريق الوحيد المؤدي له هو عبارة عن سلم من الحبال. وكانت الزنزانة توصد بباب من الحديد ويترك السجناء في ظلام دامس ومن دون مراحض أو حمامات وكان المسيحيون الأسرى يسخرون للعمل كعبيد في أعمال الزراعة. ويقول ابن خلدون (مؤرخ القرن الرابع عشر والفيلسوف) أن المسيحيين ردوا المسلمين وطاردوهم حتى الشريط الساحلي حيث التضاريس القاسية وحيث الأرض جدباء لا تصلح لزراعة الحبوب بل تصلح ولكن بشكل محدود لزراعة الخضروات. كانت غرناطة بحاجة إلى استيراد الطعام وغالباً ما كانت تشتريه من جيرانها المسيحيين تمكنت غرناطة سياسياً من البقاء لأنها كانت تدفع الجزية إلى / كاستيل/ وكانت تطلب الحماية من السلاطين في المغرب. لم تكن أراضي السلطنه واسعة وكان وجودها دائماً مفعم ومحفوف بالمخاطر.

تشهد أبنية الحمراء نفسها على فقر حكام أسرة «الناصريين» وبالرغم من أن زخرفها وتصميمها كان رائعاً إلا أن المواد المستعملة في الزخرفة لم تكن كذلك أو على نفس المستوى. وكما قال الشاعر والناقد ثيوقابل غوتيير: «إن الحمراء لم تبنى من الرخام ولا من المرمر ولا حتى من الأحجار المتواضعة». إن القصور هي مثل العديد من الأفلام التي تتظاهر بروعتها لكن بقوالب من الجص والخشب والبلاط وبهذا فإن الحمراء تشبه النصب التذكاري المملوكي الذي وضع في القاهرة في نفس ذلك القرن. وأشار / مايكل روجزر/ (في دراسة للتدريس الجامعي بعنوان «المدرسة» أثناء حكم السلطان المصري الزاهر برقوف) إلى الطريقة التي استخدم فيها خشب شجر الجميز بديلاً عن البرونز في تشييد تلك الأبنية المتصنعة الجمال. تم نهب مواد ثمينة أخرى من أبنية أحفاد السلطان برقوق ذلك لأن النحاس والبرونز والرخام والخشب لم تكن متوفرة في مصر،

فقد فرض العجز في تأمين مواد الزينة والزخرفة نوعاً من الابتكار في الزركشة. كما أن الموضة التي كانت ضرورية تحولت إلى فضيلة. إن الحكم الذي أطلقه روجرز في كتابه «مدرسة البرقوق» ينطبق أيضاً على مجمع الحمراء. لاحظ النقاد أن فن الأسرة الحاكمة «النصرانية» والفقر الذي رافقها كانا عربيان وفن قديم مهجور. نظر الفنانون والشعراء إلى أزمنة غرناطة الغابرة وإلى القصور الوافرة التي استولى عليها في القرن الثالث عشر الكافر سيفايل كما نظروا قبل ذلك إلى قرطبة في القرن الحادي عشر كما درسوا الأمجاد السياسية والهندسية للأمويين في سوريا والعباسيين في العراق.

أبدى الأدباء في القرن الرابع عشر وفي القرن الخامس عشر اهتماماً ورغبة في الانتماء إلى ثقافة المنطقة التائهة المتخلفة ثقافياً في المحيط الخارجي للإسلام. كانت مراكز الثقافة الكبيرة في ذلك الوقت موجودة في القاهرة ودمشق وسمرقند وحيرات. كانت ثقافة عموم الأندلس مخضبة بالحنين إلى الوطن الذي قد لايعود مرة ثانية. كانت الحمراء مجرد محاولة لخلق نسخة عن إيجاد القصور القديمة التي عاشت فيها الأسر الحاكمة المندثرة لكن بقدر قليل من الموارد والمصادر. إن عظمة وفخامة قصور الأسرة الحاكمة «النصرانيين» تذبل بالمقارنة مع قصور سلفها من الخلفاء الأمويين الذين سكنوا قرطبة. وفي القرن العاشر وعندما حكم الخلفاء الأمويين كل أسبانيا تقريباً بنوا قصراً على مسافة بضعة كيلومترات خارج مدينة قرطبة أطلقوا عليه إسم «مدينة الزهراء». ويُقال إن عشرة آلاف عامل كدوا في بناء ذلك القصر. أرسل الإمبراطور البيزنطي / كونستانتين يورقيرو جننتوس/ / ١٤٠/ عموداً من الرخام لتضاف إلى زخرفة ذلك القصر. وكانت قاعة الخلفاء مرصوفة طولاً بألواح ملونة من الرخام وكان في وسطها بركة من الزئبق التي تنعكس عليها أشعة الشمس والتي يمكن تحريك مادة الزئبق فيها لترسل ومضات مشرقة من أشعة الشمس في كافة أرجاء الغرفة. وكانت برك السمك في القصر بحاجة إلى إثني عشر ألف رغيفاً يومياً لاطعام السمك الموجود فيها لكن الخلافة الأموية كانت بمثابة المياه التي تصد عن سبيلها وترجع إلى الوراء بالمقارنة مع الخلافة

العباسية في المشرق كما أن رونقة مدينة الزهراء لا تضاهي رونقة القصور العباسية في بغداد وسامراء. عندما وصل وفد بيزنطي إلى بغداد في عام ٩١٧ قاموا بجولة في العديد من قصور الخلافة العباسية هناك وجاء في كتاب «تاريخ بغداد» لابن الخطيب :

الآن لم يعد أي وجود للجنود هنا، ولم يبق سوى المخصيين من الرجال والحجاب من موظفي البلاط إضافة إلى الوصيفات والغلمان السود. بلغ مجمل تعداد المخصيين سبعة آلاف رجل وبلغ عدد الحجاب وموظفي البلاط سبعة آلاف أيضاً وبلغ عدد الغلمان غير المخصيين أربعة آلاف وكانوا يعيشون على أسطحة القصور كما كانوا يعيشون في قاعات الولائم. علاوة على ذلك، فقد فُتحت غرف المؤن وفُتحت الخزائن كعادة متبعة لتهيئة العروس بالحلي واللباس، فقد وضعت جواهر الخليفة في صواني ووضعت كل صينية على عتبة وغُطيت بقطعة قماش أسود من البروكار. وعندما كان السفراء يدخلون «قصر الشجرة» كانت تبدو عليهم الدهشة الكبيرة، لأنهم كانوا يشاهدون أشكالاً من الطيور المصنوعة من الفضة وهي تخرج صفيراً مع كل حركة لها وكانت موضوعة على شجرة من الفضة أيضاً يصل وزنها إلى ما قيمته / ٥٠٠/ درهم.

وكانت تعرض على السفراء أيضاً ستائر من قماش البروكار وأنواع من السجاد والأحصنة التي تحمل أجمل السروج. وكانوا يرون أيضاً حديقة «الحيوانات البرية» والتي تضم فيلة مزينة بقماش البروكار الحريري وكانوا يشاهدون الأسود المربوطة بالسلاسل ويشاهدون بحيرة مملوءة بمادة القصدير تطفو عليها قوارب مغطاة بقماش مطرز بالذهب إضافة إلى فروع الأشجار المصنوعة من الذهب والفضة علاوة على مشاهدة الكثير من الأشياء الأخرى وذلك قبل أن يتوجهوا في آخر الجولة إلى غرفة الخليفة. امتد نطاق القصور العباسية في سامراء في القرن التاسع على طول نهر دجلة وكانت تزينها النوافذ الزجاجية المصنوعة من زجاج الموازييك ويزينها الرخام والسيرميك الفاخر وأحجار اللازورد والعاج وخشب الأبانوس. وبالمقارنة مع قصور الخلفاء فقد كانت الحمراء ظلاً لظل. وإذا نظرنا إلى عصر قريب يمكن القول إن قصور صدام حسين في العراق تدين بطابعها إلى الفنادق الأمريكية أكثر مما تدين إلى التراث والتقاليد الإسلامية .

موت السلاطين موتاً أحمر

إذا تفحص نزيه لتاريخ سلاطين الأسرة الناصرية في غرناطة يكشف أنهم حكموا فردوساً مسموماً من دون أساس وطيد. أشار / فيرناندیز بويرتاس/ أنه من بين السلاطين التسع الأوائل (أي من محمد الأول وحتى إسماعيل الثاني (١٢٣٢م-١٣٦٠م) مات واحد منهم في حادث وآخر أطيح به وبعدها مات موتاً طبيعياً، أم السبعة الباقيين فقد اغتيلوا. وكما سنوضح لاحقاً فإن عمر وزراء سلاطين الأسرة «الناصرية» لم يكن أحسن حظاً . فقد جال «الموت الأحمر» ممرات مجمع الحمراء - ونعني بالموت الأحمر الموت العنيف بينما نشير بالموت الأبيض إلى الموت بسلام أثناء النوم. ففي أسبانيا وفي زمن معاصر لها في المغرب، كان العنف المحرك الرئيسي للأمور السياسة. دخل الغرب والبربر المغاربة أسبانيا لأول مرة في عام/ ٧١١م/ . ولأول مرة ومنذ عدة قرون تواجه قبضتهم على أرجاء شبه الجزيرة الأسبانية باستثناء غاليسيا أية معارضة أو منافسة. لكن في عام ١٠٣١م قد تدهورت الخليفة الإسلامية في قرطبة وسقطت ضحية للعدو وللضغائن والحزازيات العسكرية. وبعدها تقاسمت ملوك الطوائف الأراضي التي يسيطر عليها المسلمون في أسبانيا وأصبحت وبشكل متزايد تواجه تهديداً متصاعداً من المسيحيين ريكونكويستا. ولكي يدافعوا عن أنفسهم في وجه المسيحيين لجأ ملوك الطوائف في أوائل القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر) إلى أسرة المرافض وهي أسرة حاكمة من بربر شمال أفريقيا. وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر لجأوا إلى أسرة مالكة أخرى يقال لها (المُهد) وهي عائلة حاكمة ذات مزاج لايمكن تحمله. وفي بداية القرن الثالث عشر واجهة قوة «المهد» في شمال أفريقيا تحدياً وتهديداً من قبل عشائر بربرية منافسة لها وانسحبوا من أسبانيا تاركين المسلمين هناك يواجهون ثورة المسيحيين بمفردهم. استولى المسيحيون على قرطبة في عام ١٢٣٦م واستولوا على سيفايل في عام ١٢٤٨م .

تأسست سلطنة أسرة «الناصريين» في غرناطة في عام ١٢٣٢م وأسسها محمد الأول الغالب والذي يطلق عليه أيضاً اسم ابن الأحمر. وهو قائد ورع من جماعة قتالية صغيرة تولت زمام الأمور بعد انسحاب برابرة «المهد». ناضل وحقق نجاحاً محدوداً في

الدفاع عن الأراضي التي اغتصبها من مسيحيي كاسفيل .

توفي محمد الأول (الذي توسع وبنى سجن الكذابة) بعد أن سقط عن حصانة في عام ١٢٧٣م. أما محمد الثاني فقد مات في عام / ١٣٠٢/ وكان عليه أن يدافع عن أراضيه ليس فقط ضد مسيحيي الكاستيلا بل أيضاً ضد قبيلة عربية متمردة تدعى بني الشقيلولا. ويقول ابن الخطيب أن ابن السلطان مات مسموماً وأن ابنه هو الذي دس له السم في مخيض اللبن والبيض. وابنه هو الذي يدعى محمد الثالث كان شاعراً مصقولاً ذا نزعة سادية يلذذ بإنزال العنف في أعدائه ومحباً للأعمال الهندسية. فهو الذي بنى مسجد الحمراء. وعندما علم أن أحد السجانين كان عطوفاً على بعض العبيد الذين حكم عليهم بالموت جوعاً في أحد سراديب القصر، أمر بقطع رأس ذلك السجان لكن بطريقة تدحرج رأسه على العبيد وانتشرت دماءه فوقهم. وعندما فقد بصره استمر بالحكم من خلال وزير له، ولكن في عام ١٣٠٩م مات هذا الوزير على يد أحد منافسيه وبعدها أجبر محمد الثالث على التنازل عن الحكم. خلفه في الحكم أخاه / ناصر/ ولكن عندما أصيب ناصر بالسكتة الدماغية حاول محمد الثالث مجدداً أن يستولي على الحكم لكن ناصر تماثل للشفاء ووضع أخاه في السجن. وبعد ذلك بوقت قصير عُثر على جثة محمد الثالث عائمة على إحدى برك القصر .

كان ناصر بارعاً في الرياضيات وعلم الفلك ولكنه لم يكن بارعاً في السياسة ولذلك أُجبر على التنازل عن الحكم في عام ١٣١٤م . خلفه في الحكم ابن عم له يدعى إسماعيل وحكم حتى عام ١٣٢٥ حيث قام ابن عم له أثناء شجار على أحد الفتيات الجاريات بطعنه حتى الموت. (إسماعيل الأول هو الذي أنشأ قاعة Mexuar بالرغم أنه من الصعب القول كم من ذلك البناء لايزال موجوداً حتى يومنا هذا). وهو أيضاً بنى النسخة الأولى من قصر كوماريس علماً بأن البناء الذي قام به قد تهدم تماماً ولم يحظى بأي فرصة ترميم من الذي خلفوه في الحكم. (ومن المرجح أن قاعة جنرالايف تعود أيضاً إلى فترة حكمه). جلس محمد الخامس (وهو ابن إسماعيل وخليفته في الحكم) على كرسي العرش عندما كان في التاسعة من عمره. وبعد أن اغتيل وزيره الذي يدعى ابن المهرق

في عام ١٣٢٨م أو ١٣٢٩م أصبح فعلياً سجيناً ودمية في يد عشيرة بني أبي العلا، اشغل محمد نفسه بخيوله، حدثت المجاعة الكبيرة في عام ١٣٢٩م واستمر فلاحوا غرناطة وعلى مدى عدة سنوات النضال في العيش معتمدين على مخازن الحبوب المتعفنة. وبسبب التهديد المستمر من قبل مسيحيين كاسيتلا وسيطرت المسيحيين على أراضي المسلمين، أصبح محمد الخامس يعتمد اعتماداً كبيراً على مساعدة / الميرنديس/ . وفي عام ١٣٣٣م قامت عشيرة بني أبي العلا باغتياله لأنهم اعتقدوا بأن علاقته مع / الميرنديس/ كانت حميمة أكثر من اللزوم. من الواضح أنه من غير الصواب الاعتقاد بأن سلطنة أسرة "الناصريين" كانت حكم مطلق مستبد من دون قيود. ولا يمكن القول إن الاغتيالات طغت على استبداديتهم ولكن حتى عندما لم يكن عهد حكم السلطان مهدداً بشكل مباشر بحدة السلاح فلم يكن يمارس الحكم بشكل يضبط العشائر العربية وعشائر شمال إفريقيا المتناحرة .

جاء يوسف خلفاً لمحمد الخامس بصفته أخاً له. وهو لم يبلغ / في وقتها/ من العمر سوى خمسة عشر عاماً. يقول ابن الخطيب إن المرسوم الملكي للسلطان الصغير لم يتجاوز صلاحية إقرار ما يود تناوله على العشاء. حدث خلال فترة حكم يوسف الأول (١٣٣٣م–١٣٥٤م) أن جيوش كاستايل والأرغون والبرتغال تمكنت من دحر جيش مشترك يضم قوات من الناصريين والمرنديس وكان ذلك في معركة يطلق عليها اسم ريوسالادو في عام ١٣٤٠م بعدها انسحبت قوات المرنديس من الأندلس. وكان ذلك نهاية وجود أي مساعدة عسكرية تذكر من قبل قبائل شمال أفريقي للعرب في غرناطة. وحدث أيضاً خلال فترة حكم يوسف الأول بدءاً من عام /١٣٤٨/ . إن انتشار الموت الأسود في كافة أرجاء غرناطة أثر هذا الوباء على فقراء الأحياء الشعبية وعلى الفلاحين بسبب سوء التغذية. انتشرت شائعات مفادها أن العديد من المسلمين كانوا يفكرون باعتناق الديانة المسيحية على أمل أن يحظوا بالرعاية الطبية. وبالرغم من هذه النكسة الكئيبة فقد كان يوسف الأول (مثل خلفه محمد الخامس) مولعاً بالأعمال الهندسية ولذلك أشرف على الكثير من أعمال البناء المتعلقة بقصر كوماريس (وعلى وجه

التحديد قاعة السفراء) كما أشرف على برج الأسرى، وأسس "المدرسة" في غرناطة. دخل الشاعران ابن الجياب وابن الخطيب مجال خدمة السلطان وأصبحا وزيرين له. وفي عام ١٣٥٤م قام عبد أسود مجنون بطعن يوسف حتى الموت وهو جالس في مسجد غرناطة الكبير .

وبالرغم من أن يوسف كان يفضل ابنه الأصغر إسماعيل إلا أن رجال القانون الكبار في الدولة وهما رضوان وابن الخطيب وضعا الإبن الأكبر محمداً وريثاً وأجلساه على العرش. كان عمر محمد الخامس (١٣٥٤م -١٣٥٩ و ١٣٦٢م -١٣٩١م) في ذلك الوقت ستة عشر عاماً وكان وزراءه هم الذين يديرون شؤون البلاد. اعتمد على حارس شخصي مسيحي من أجل حمايته وأمنه لكنه لم يستطع حمايته من شقيقه غير اللزم إسماعيل الذي أطاح به في عام ١٣٥٩م . قام أحدهم باغتيال حاجبه "رضوان" وذهب محمد الخامس وأنصاره إلى المنفى في منطقة ميرند في فاس (وكما سنرى لاحقاً فإنه كان لتلك الإقامة المؤقتة في المغرب أثراً بالغاً على الحياة السياسية في غرناطة وعلى الهندسة المعمارية وزخرفة قاعة الأسود). أقدم أبوعبدالله محمد على اغتيال ابن عمه إسماعيل الثاني البدين المخنث في عام ١٣٦٠م . وكان أبوعبدالله هذا جلف مدمن على الحشيش ومصاب بالعرّه (وهي تقلص لا إرادي في عضلات الوجه) - وأصبح محمد الخامس. وفي عام ١٣٦٢م عاد محمد الرابع من منفاه في فاس وتمكن بدعم من / بدرو/ العديم الشفقة (١٣٥٠م -١٣٦٩م) وملك الكاستيل من إستعادة حكمه كما أقدم / بدرو/ شخصياً على قتل محمد السادس بطعنة من رمحه. ومثل يوسف الأول من قبله، فقد استغل محمد الرابع تحالفه الوثيق مع ملك كاستيلا. ويُطلق على ذلك الملك لقب عديم الشفقة بسبب ولعه بالقتل. وفي سياق الأمور السياسية الأسبانية للقرن الرابع عشر، فكون المرء يحظى بلقب عديم الشفقة هو شيء مميز .

كان / بدرو/ متحمساً للثقافة الإسلامية وأحضر حرفيين مسلمين من غرناطة للعمل في قصر سقابل بدءاً من عام ١٣٦٤م . إن هذا القصر / وبشكل خاص قاعة السفراء فيه تضم أجزاء سفلى من الجدران مزخرفة وقوالب جصية مشغولة بشكل دقيق

ومعقد والتي هي من بقايا الحمراء. وقد نجد شعارات إسلامية وأخرى تعود إلى الأسرة الحاكمة "الناصريين" مثل "لا غالب إلا الله" وهي منقوشة على بلاط ملتصق بجدران هذا القصر المسيحي. ومما لاشك فيه أن الفضل في ذلك يعود إلى قصر ميرندي في فاس والذي لم يعد موجوداً في الشكل الذي كان عليه في العصور الوسطى. قُتل بدرو في عام ١٣٦٩م بعد هزيمته في معركة مونتييل على يد أخاه غير الشقيق هنري. ومع موت بيدور انتهى التحالف الوثيق بين غرناطة وكاستيايل (وأيضاً انتهت أعمال البناء التي قام بها محمد الرابع). وعلى الرغم من أن محمد الرابع كان حليفاً لملك كاستايل، إلا أن الفوضى التي خلفها اغتيال بدرو سمحت له باستعادة الجيسيراس في شهر تموز من عام ١٣٦٩م وهو حدث يجعل بعض الأدباء يظنون أن قاعة الأسود بنيت تخليداً لذلك الحدث. ومن المؤكد أن العمل في قصر كوماريس (وبشكل خاص واجهته) انتهى في عام ١٣٧٠م ومن المرجح أيضاً أن تمويل هذا العمل جاء من أعمال النهب التي حصلت من خلال حملة الجيسيراس. على أية حال، فليس هناك دليل يؤكد أن قاعة الأسود بُنيت لتكون نصب انتصار. ومن ناحية تسلسل الأحداث فهذا أمر مستبعد. إلى جانب إتمام قصر كوماريس وبناء قاعة الأسود، قام محمد الرابع بإعادة بناء منطقة Mexuar. كان يوسف الأول ومحمد الرابع السلطانين الاثنين المسؤولين بالدرجة الأولى عن مجمع الحمراء بالشكل الذي نراه عليه اليوم. ذُكرا في التاريخ على أنهما قادرين ومثقفين وحاكمين ذو شعبية عريضة وقد تكون هذه هي حالتهما في الواقع. على أية حال فإن هذا الكلام الإيجابي في مديحهما يرتكز على الشهادة التي أدلى بها الموظف والمداح لهما ابن الخطيب ومن الصعب جداً التأكد من أي شيء أبعد من مديحه .

لا تتوفر مصادر عربية جيدة تصف الأحداث في غرناطة عقب موت محمد الرابع وامتداداً إلى القرن الخامس عشر. إن عدم توفر مثل هذه المصادر قد يدل على أن المكان تحول إلى مكان يُدفع به إلى الوراء. من الملفت للنظر هو أننا مضطلعين على تاريخ قرطبة في ظل حكم الأمويين في القرن العاشر والقرن الحادي عشر أكثر من

اضطلاعنا على تاريخ غرناطة في أواخر العصور الوسطى. إن الشخص الذي خلف محمد الرابع وهو يوسف الثاني (١٣٩١م -١٩٩٢م) وكان بمثابة أول لعبة متحركة بيد والده المدعو خالد والذي قتل ثلاثة من أخوة السلطان قبل أن يتمكن السلطان في نهاية الأمر من قتله. مات يوسف الثاني مسموماً (ويزعم أن رداءه كان مشبع بالسم) ولكن لاتوجد لدينا المعلومات الكافية عن أسماء الأشخاص الذين خلفوه في الحكم ولا حتى التواريخ التي حكموا فيا وجميعها متروكة للتخمين .

وبعد موت محمد الرابع، لم تتم أية أعمال بناء داخل فناء الحمراء. قام محمد السابع (١٣٩٢م -١٤٠٨م) ببناء برج الأميرات علماً بأن مجموع الأدباء يقولون بأن تصميم البناء وزخرفته تدلان على تردي حرفة ومهارة البناء. تعاقبت فترات من الاضطرابات وأحياناً تداخلت مع فترات من الحروب مع الجيران المسيحيين. وهناك حالة عداء وضغينة يجدر التوقف عندها، وتتجسد في التنافس الذي كان قائماً بين عشيرة قوية تُعرف باسم بنو سراج وأعدائهم. ففي عام ١٤١٩م أطاحوا بمحمد الثامن ونصبوا محمد التاسع على العرش مكانه. وعلى الرغم من أن محمد العاشر كان عنيفاً وحاكماً شعبياً غير مرحب به كثيراً فقد أطيح به عدة مرات وبقي بنو سراج قوة فاعلة . خلف محمد الحادي عشر في عام ١٤٥١م محمد العاشر (كان محمد العاشر واحداً من القادة عاثري الحظ فقد جلس على العرش في فترة تم فيها خلع محمد. قام أبونصر سعد بذبح محمد وأقدم على خنق أولاده واستولى على الحكم. وتقول الرواية أن السلطان الجديد دعى بنو سراج لتناول العشاء في مجمع الحمراء وذبحهم جميعاً .

في حقيقة الأمر يبدو أن أبونصر سعد نجح في قتل اثنين فقط من جماعة بنو سراج إلا أن الشعراء ومؤرخي الأحداث في القرن التاسع عشر كتبوا في ذكرى هذه المذبحة الشنيعة لجماعة بنو سراج كما أن العاملين في الأدلة السياحية يأخذون السائحين ليشيروا لهم على أماكن الدم والبقع الموجودة على رخام البركة في قاعة ابن سراج ليؤكدوا على فظاعة الحدث الذي وقع هناك .

إن العقود الأخيرة من سلطنة غرناطة هي تجسيد لقصة من خيارات متناقصة. فالبرغم من التهديد الخارجي الصادر عن المملكات المسيحية إلا أن الصراع الداخلي على حكم المناطق والأراضي المتناقصات استمر دون توقف أو انقطاع. إن آخر سلطان (وهو محمد xH والمعروف لدى الكتاب في الغرب باسم أبوعبدالله) حكم بشكل متقطع من عام ١٤٨٢م ١٤٩٢م في ظل تنافس مع مختلف رجال عشيرته - وتجدر الإشارة هنا إلى أنه أطاح بوالده في محاولة انقلابية حدثت في القصر. وفي عام ١٤٧٩م اتحدت ارغون وكاستايل بسبب زواج الملك فرديناند والملكة ازابيلا. وفي عام ١٤٨٥ اعترف / أبوعبدالله/ بحكم فرديناند كاستايل على أقليم غرناطة لكن المسيحيين استمروا في احتلال المزيد من أراضي السلطنة. وفي عام ١٤٨٩م لم يبق في أيدي المسلمين سوى مدنية غرناطة ومجمع الحمراء. حوصرت غرناطةوجوع أهلها إلى أن استسلموا. وفي الثاني من كانون الثاني من عام ١٤٩٢م استسلم / أبوعبدالله/ في قاعة السفراء وسلم مفاتيح المدينة إلى الأسبانيين. ورُفع علم كاستايل على برج المراقبة فوق سجن الكذابة. "ولا غالب إلا الله".

وفي عام ١٩٣٠م كتب المؤرخ وكاتب السير الذاتية / فيليب غويدالا/ مقالة مضللة مناهضة للحقائق بعنوان "لو أن المورسكيين في أسبانيا كسبوا الحرب ..." وبعد أن تحدث عن الهزيمة الفاصلة للسلوك الكاثوليك في معركة لانجارون في عام ١٤٩١م ويأسهم من أي أمل في الاستيلاء على غرناطة استطرد في الكتابة عن تبعيات الأحداث بالنسبة لأوروبا من الناجين من مملكة المورسكيين وصولاً إلى الوقت المعاصر. كما أنه قدّم أيضاً للقراء مقطعاً من كتاب إرشادي كتبه / بايديكر/ خاص "بدول شمال أفريقيا وبالشاطىء البربري بما في ذلك مملكة غرناطة". جاء في التخيل والوهم الوارد في كتاب غويدالا أن غرناطة كانت في بداية القرن العشرين عاصمة الملك بو عبدالله الرابع وكانت مكان إقامة مفتي ديار الإسلام. وبالنسبة للحمراء ورد في الكتاب النص التالي :

"تحتوي الحمراء على قصور ملكية كما تحتوي على جزء كبير من الأبنية الحكومية (وزارة الحرب، والبحرية، والشؤون الخارجية والأوقاف) إضافة إلى نصب تذكاري جميل عن الحرب.

أما الجامع الكبير المبجل والمعروف بالعالم الإسلامي باسم المسجد الكبير فهو من الجوائز التي أهملها الملك فرديناند خلال هروبه السريع من أرض معركة لانجارون" .

إن قصر الحمراء هو مكان سياحي من نجمتين يمكن الدخول إليه في غياب الأسرة الحاكمة بعد الحصول على أذن خطي من وزارة الداخلية. والشقق الخاصة محجوبة عن الزوار.هذا ويتم تنبيه الزائرين إلى / جنيرا لايف/ إلى ضرورة توخي الحيطة باعتبار أن معرض الوحوش أو مجموعة الوحوش موجودة هناك. إن التاريخ شيء مسلٍ وممتع ويمكن للمرء أن يتفكر تماماً كما تأمل غوريلا بشكل ضمني بالخسارة أمام الثقافة الأوروبية وخسارة العلوم التي تزامنت مع سقوط غرناطة ومع طرد المورسكيين (العرب الفاتحين) من أسبانيا. على أية حال، فقد جاء في قصيدة الشاعر / اوودن/ والتي هي بعنوان "أسبانيا عام ١٩٣٧" التالي :

قد يقول التاريخ للمهزوم يا خسارة لكنه عاجزا عن تقديم المساعدة أو تقديم الصفح

موت العذراء موتاً أحمر

إذا كان خطراً على المرء أن يكون ملكاً فإن كون المرء وزيراً للملك فهو على نفس القدر من الخطورة، لأنه كان شيئاً عادياً أن ينتهي الأمر بالوزير إلى القتل. ليس هناك حاجة في هذا الكتاب لسرد كافة هذه الأحداث التعيسة وفق تسلسل تاريخي لكن هناك وزيرين على وجه التحديد، وهما ابن الخطيب وابن زمرك كانا مشتركين في زخرفة وتصميم مجمع الحمراء. وفي عام ١٣٤٩ قضى الموت الأسود على / علي بن الجيوب/ وزير وشاعر بلاط يوسف الأول. خلفه في ذلك المنصب / ابن الخطيب الذي كتب بحثاً عن الوباء والذي قال فيه إن الوباء انتشر بفعل فيروس قادر على نقل مرضٍ معدٍ. (وكان الرسول محمد قد نفى أن يكون بإمكان الوباء أن ينتشر في تلك الطريقة).

ولد / لسان الدين ابن الخطيب/ في عام ١٣١٣م –١٣٧٥م في قرية خارج غرناطة وهو ينتمي إلى أسرة نبيلة بيروقراطية. كان ابن الجياب واحداً من مدرسيه وعندما أصبح وزيراً أعرب عن عرفانه لابن الخطيب وعينه سكرتيراً خاصاً له. كان

ابن الخطيب كاتباً فصيحاً كما تدل على ذلك الكلمة الأولى من اسمه «لسان». وبعد أن أصبح وزيراً للسلطان يوسف الأول احتفظ ابن الخطيب بذلك المنصب تحت حكم محمد الرابع وعندما أطيح بمحمد الرابع في عام ١٣٥٩م ذهب ابن الخطيب معه إلى المنفى في شمال أفريقيا ومن ثم عاد معه إلى السلطة في عام ١٣٦٢م . وعند عودته إلى منصبه في غرناطة أعد ابن الخطيب سلسلة من أعمال الثأر من منافسيه ويبدو أنه أصاغ لهم تهم بالقتل تعزيراً لذلك الهدف. إن الاتصالات السياسية والثقافية التي كان قد قام بها خلال سنوات المنفى في سلطة / ميريند/ من عام ١٣٥٩م وحتى ١٣٦٢م كان لها أثر كثيراً على تفكيره وتولدت أسباب قوية للافتراض أن ما رأه مع ملكه في المغرب كان له التأثير الرئيسي على أعمال البناء التي أقيمت في مجمع الحمراء خلال السنوات التي تلت عودتهم من المنفى. وعلى مدى حياته السياسية أبقى ابن الخطيب نصيراً ومؤيداً قوياً لإيجاد تحالف مع ميريند من أجل مقاومة النشاط المسيحي المعادي. إن كتابه الذي نشره بعنوان:

«إخراج كل ما في الكيس – تحول طريق المسافر» تناول بالدرجة الأولى وصفاً لأراضي / ميريند/ .

وخلال وجوده في المنفى قضى ابن الخطيب معظم وقته في سالي (القريبة من الرباط والواقعة على الساحل الأطلنطي) وهناك انهمك في دراسة الصوفية والتأملات الروحانية الباطنية. جاءت هذه الحقائق في وقت انتشرت فيه الصوفية في كافة مناطق شمال إفريقيا وأسبانيا. لاحظ ابن بطوطة (رحالة القرن الرابع عشر) أن عدداً من الصوفيين والفارسيين قد استقروا في غرناطة وزار عدداً من الأماكن الصوفية. كان محمد بن أحمد بن مرزوق (١٣١٠م – ١٣٧٩م) كاتباً مشهوراً من شمال أفريقيا وسياسياً وكان واحداً من الصوفيين الذين درسوا فكر ابن الخطيب. هذا واجرى ابن الخطيب دراسة على كتابات / محي الدين ابن عربي/ العظيم الذي عاش في القرن الثالث عشر. كان ابن عربي ذو حضورٍ بالغ في أواخر التصوف الإسلامي في العصور الوسطى. قرأ كتبه كل المثقفين علماً أن بعضً الناس كانوا يشكون في استقامة رأيه. تأثرت نظرته الغيبية بالأفلاطونية المُحدثة لإخوة النقاوة. كان ابن العربي ينظر إلى الجمال على أنه تجلي للخالق

وعليه فقد أعد آراء خاصة به حول التصوف في كتابه بعنوان «روضة التعريف بالحب الشريف» حيث تطرق إلى الحب الإلهي ونمو شجرته المجازية وتأكيده على ممارسة عبادة ذكر الله والتأمل بجمال خلق الله. وكان يعتقد أن الحب هو الذي يجعل العالم يدور حول نفسه. على أية حال، وبالرغم من ميوله الصوفية كان مولعاً جداً بالترف. كان في قصره حاجز زجاجي فيه شلال من ماء. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أحد السلاطنة السلجوقيين بنى لنفسه قصراً من زجاج، ولذلك السبب فليس من المستغرب أن يكون قصر محي الدين ابن العربي وقصر المملوك السلجوقي قد اختفيا. إضافة إلى هذين الصرحين فقد اختفى أيضا السرادق الخزنقيدي المصنوع من مادة / الحلفا/ . كان ابن العربي كاتب غزير الإنتاج إذ كتب عن السفر والطب والشعر والنظرية السياسية والتاريخ وقواميس السير الذاتية. كتب مقدمة عن الأمراء الذين جلسوا على كرسي العرش قبل بلوغهم سن الرشد. وألف وثيقتين من المقتطفات الأدبية المأخوذة من أرشيف المحكمة العليا. وكتب أيضاً مقالة عن السفر في الصيف وفي الشتاء وألف العديد من الموشحات وهي عبارة عن قصيدة شعرية من خمسة أو ستة أبيات الغرض منها الترديد مع الموسيقى. والأكثر شيوعاً هو أن هذا النوع من الشعر جاء لإحياء ذكر الحب الضائع وقساوة قلب المحبوب. وبالرغم من كون هذا الموضوع مثيراً للجدل إلا أن العديد من الكتاب العرب يقولون إن للموشحات تأثير بالغ على القصائد الشعرية الغنائية. كانت تلك فترة لعب فيه الشعر أداة في الفنون السياسية وكان الوسيلة الأكثر شيوعاً للحملات الإعلامية السياسية. لقد تميزت معظم مناسبات الدولة الرسمية بالقصائد الشعرية الغنائية المتسمة بالأبهه والغرور الفارغ. حملت أعمال ابن الخطيب معاصريه على الإشارة إليه على أنه رجل ذو عمرين. فقد كان أديباً وشاعراً ورجل دولة ومما سهل ويسر غزارة إنتاجه هو الأرق المزمن. فالمعروف أن نومه لم يكن جيداً باعتبار أن الأمور السياسية في حكم الناصريين كان عملاً خطراً كما أن ابن الخطيب صنع لنفسه الكثير من الأعداء. ومع اقتراب نهاية فترة عمله عمل على مراجعة القاموس الذي أعده عن السير الذاتية بعنوان «قوات مرابضة في كمين وذلك لأن العديد من أصدقائه الواردة أسمائهم في

القاموس أصبحوا أعداء له. كان يعتقد أن قدر كافة الأنظمة والأسر الحاكمة أن تتأثر على المدى الطويل بفساد وطموح وجشع الأشخاص العاملين على خدمتهم. كان من وجهة نظر أرستقراطية يحتقر الفئات السوقية المتقلبة - وكان يقول عنها إنها صماء بكماء ولا عقل لها. نظر صالصات في مملكة غرناطة إلى التاريخ على أنه حلقة مفرغة من اغتصاب للحكم وإطاحات بالحكام. وشاركه في هذا الرأي المتشائم الخاص بالعملية السياسية الفيلسوف والمؤرخ ابن خلدون. حافظ هذان الكاتبان والسياسيان على صداقة متقطعة مشحونة بالمخاطر. وبالرغم من أن الناس كانوا في تلك الأيام يقرأون لابن خلدون أكثر مما يقرأون لابن الخطيب (بسبب أفكاره عن تكرار أحداث سقوط الأسر الحاكمة والعلم الاجتماعي في الإسلام إضافة إلى أشياء أخرى)، إلا أن ابن الخطيب كان في عصره الشخصية الكبرى والكاتب المتميز في أسلوبه .

ويعود السبب في معرفتنا الشيء الكثير عن ابن الخطيب هو أنه قبل حوالي ٢٠٠ سنة، قام الأديب «المغاري» من دول شمال إفريقيا (١٦٧٢م–١٥٧٧م) بكتابة تاريخ المسلمين في إسبانيا كما كتب السير الذاتية لمشاهير الوزراء في تلك الفترة وذلك في كتاب كبير بعنوان «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطب وتاريخ وزيره لسان الدين الخطيب». إن «المقاري» الذي كان في تلك الفترة يسكن في دمشق كتب أيضاً كتاباً مملوء بحنين رومنسي إلى الأندلس التي فقدها المسلمون إلى الأبد. وكان ابن الخطيب بطله المُفضل. على أية حال بنا أميليو غارسي غوفير (أديب القرن العشرين) على ما قدمه / المقاري/ وآخرون وقدم وصفاً مختلفاً إذ قال إن ابن الخطيب كان طموحاً وجشعاً. وأن أعماله الأدبية العديدة تميزت واتسمت بألفاظ وتعابير ومفردات غامضة على نحو سيء. كانت الصورة التي رسمها غوميز عن ابن الخطيب كئيبة ووصفه على أنه شخص عصابي المزاج تستحوذ عليه فكرة أن أيام المسلمين في أسبانيا كانت معدودة وانجر إلى فكرة التصوف خوفاً من الموت. إن الكثير من رجال الحاشية الملكية عارضوا سياسية ابن الخطيب المؤيدة للميرنديين كما عارضوا إصراره على حاجة المسلمين في الأندلس لدعم المغرب من أجل مقاومة الزحف المسيحي كما أن تراجع القوة السياسية والعسكرية لدى

الميرنديين سارع في نهاية قدر ابن الخطيب. دارت شائعات مفادها أن ابن الخطيب كان يخطط مع السلطان الميرندي عبدالعزيز ضد محمد الرابع. ويبدو أن بعض هذه الشائعات كان مصدره / ابن زمرك/ الذي كان يشغل منصب نائب ابن الخطيب. وفي عام ١٣٧١م هرب ابن الخطيب إلى المغرب حيث أمن عبدالعزيز الحماية له لكن هذا السلطان مات في عام ١٣٧٢م وأصبح خلفه محمد الثالث عرضة سهلة للضغوط السياسية التي مارسها عليه حكام جماعة «الناصريين» في غرناطة. تم اعتقال ابن الخطيب وبالرغم من أن أسباب اعتقاله كانت سياسية لكن وجهت إليه تهم الهرطقة والبدع في الدين. قام أعداؤه بجرد مقالاته عن التصوف بحثاً عن أدلة تؤكد أنه اعتنق شكلاً من أشكال الفلسفة الإلحادية وفلسفة «الإحلال» أو فكرة تجسيد الآلهة التي تقول بأن الله موجود في هذا الكون. وأثناء وجوده في السجن في «فاس» انتظاراً لتنفيذ حكم الإعدام به، قام ابن الخطيب بكتابة قصيدة شعر قال فيها: «كنا نُطعم الآخرين ولكن يا حسرتاه أصبحنا طعاماً للدود». لم تتهيأ محاكمته لكن نُفذ به حكم الإعدام شنقاً من قبل فرقة خاصة من غرناطة ترأسها ابن زمرق. وفي وقت لاحق أخرجت جثته من القبر وقام أعداؤه بحرقها ولذلك قيل بأن ابن الخطيب كان الرجل الذي مات ميتتين .

إن الرجل الذي أشرف على تنفيذ حكم الإعدام بابن الخطيب كان رجلاً ذا ثقافة عالية - وهو أبو عبدالله محمد ابن يوسف ابن زمرق (مات بعد عام ١٣٩٣م) وهو ابن شخص حداد يُقال بأنه قتل والده بضربة على رأسه. يعود الفضل في تقدم ابن زمرق إلى سيده ابن الخطيب الذي كان أستاذه في المدرسة التي أنشأت حديثاً في غرناطة. كان ابن زمرق طالباً لامعاً ذكياً وأصبح فيما بعد أمين سر ابن الخطيب وكتب فيه الكثير من قصائد المدح والإطراء. وكما فعل ابن الخطيب، قام ابن زمرق بمرافقة محمد الرابع إلى منفاه في بلاد شمال أفريقيا حيث درس الصوفية مع ابن مرزوق. وعاد إلى أسبانيا في عام ١٣٦٢م شغل ابن زمرق منصب السكرتير الخاص لمحمد الرابع إضافة على شغله مهمة خاصة وهي تأليف القصائد الشعرية التي تخلد ذكرى الأحداث الشعبية العامة. كتب ٦٦ قصيدة بقيت منها حوالي إثني عشر قصيدة. كتب قصائد تصف أسلوب

وأخلاق شاعر القرن الثاني عشر الأندلسي ابن خفاجة - أي أنه تخصص في استغاثة الطبيعة والحدائق ومتع الحياة (وتميزت قصيدة الزهور وقصيدة الحديقة التي كتبها بأنها نواة الأدب العربي). ومما هو مؤكد أن ابن زمرق كتب عن الحمراء وعن حدائق الحمراء وإن القصيدة التي كتبها عن حديقة القصر وأعمال الفلك ما هي إلا إظهار لوسيلة بارعة في فن الكتابة. إن القصيدة الشعرية تلك هي مديح زائف على حساب الطبيعة ومديح للقصر على حساب الحديقة (وهناك تلميح مفاده أن قصيدته هي أفضل من القصر والحديقة). كان يكتب بأسلوب استعارة مجازية تقليدي مائة بالمائة. فعلى سبيل المثال فإن الجواهر تعادل أبيات الشعر والأبيات الشعرية مثل النجوم. إن مجد الحمراء ما هو إلا كناية مجازية عن محمد الرابع وهكذا... هذا وكتب ابن زمرق أيضاً قصيدة دينية تافهة مبتذلة. وبالرغم من محاولة الوصف فهي كانت أفضل بعض الشيء من غيرها إلا أن القارىء المعاصر قد يجد ابن زمرق كاتباً مضجراً ومملاً. إن قصائد المديح في أي لغة هي قصائد مكشوفة .

يبدو أن ابن زمرق انفصل عن ابن الخطيب في عام ١٣٦٩م. فما أن هرب ابن الخطيب إلى المغرب حتى أصبح ابن زمرق وزيراً بدلاً عنه وأصبح يرافق يوسف الثاني (خلف محمد الرابع) في كافة أعماله ومشاويره. هذا وعمل ابن زمرق أيضاً وزيراً لدى محمد السادس قبل أن يتم اغتياله بناء على أوامر ذلك السلطان. عثر القتلة على ابن زمرق في بيته وهو يقرأ القرآن فقاموا بذبحه وبذبح اثنان من أبنائه أمام أعين زوجاته وبناته. وتماماً مثل ابن الخطيب، كان ابن زمرق ضحية دراسة عدائية قام بها غارسي غوينر ونشرها في كتابه بعنوان «ابن زمرق، شاعر الحمراء». كان لهذين الشاعرين والسياسيين دوراً هاماً في الإعداد والإشراف على بناء قاعة الأسود. وعلى أجزاء أخرى من قاعة الحمراء. إن القصيدة الشعرية التي كتبها ابن الخطيب في مناسبة المولد النبوي في عام ١٣٦٢م هي المصدر الأدبي الوحيد الخاص بمظهر الحمراء قبل عام ١٤٩٢م. إن شعره ليس محصوراً في مخطوطات أدبية بل إنه منقوش أيضاً على جدران مجمع الحمراء. إن مجمع الحمراء هو الأكثر شهرة بين الأبنية الإسلامية التي تعرض التعليقات الخاصة

بها بشكل كتابي. إنها بمثابة بناء يعج بالنصوص وإنها كتاب كان يسكنه أناس من البشر. يمكن لأحد رجال الحاشية خلال تمشيه في القصر إن يتعلم من الكتابات الموجودة على أحد أبراجه إن «لاشيء يمكن أن يوازي هذا الإنجاز» مع مفخرة وجمال يتعلق ببركة قاعة الأسود التي لا يضاهيها سوى جمال هذا الحوض. لقد شاء الله العلي القدير أن يفوق جمالها جمال أي شيء في عالم الجمال. هناك إرشادات مكتوبة على بوابات وأبواب السرادق تطلع القارىء على كيفية عملها. وغالباً ما كانت أبيات شعر ابن زمرق وابن الخطيب تكتب عند مستويات منخفضة يمكن قراءتها. إلا أن النصوص القرآنية كانت تكتب في أماكن عالية جداً لدرجة أنه يصعب على أي شخص أن يقرأها. وهناك على وجه التحديد قصيدة لابن زمرق تمجد أسوار . «قاعة الشقيقتان» . كتب ريتشارد فورد وهو من رحالة أوائل القرن التاسع عشر يصف قاعة الأسود على أنها مكان هادئ (دير) لكنها لم تُعد أبداً خاصة بالزاهدين. وبالرغم من المظاهر، فإن قاعة الأسود قد تكون بالفعل مكان كان مسلموا العصور الوسطى يتلقون العلم والدراسة فيه وكان أيضاً المكان الذي يصلون فيه ويعتكفون فيه وبالتحديد كان المكان الديني الخاص بالزهد والنسك من العبادة. إن الجو الثقافي والأدبي لقاعة «الناصريين» في منتصف القرآن الرابع عشر إضافة إلى الإقامة المؤقتة للسلطان ولوزراءه على مدى الفترة من عام ١٣٥٩م وحتى ١٣٦٢م قد لعبت دوراً حاسماً في تحديد شكل ومنظر قاعة الأسود، ويقول / خوان كارلوس رديزسوزا/ إن قاعة الأسود لم تكن قصراً على الإطلاق ولكنها كانت مدرسة. يمكن أن يكون قد جلس فيها دارسين للقرآن وللحديث ولعلوم الدين وللشريعة وعليه فقد كانت منبراً للحوار الثقافي الذي كان يحدث مباشرة أمام السلطان (وصف ابن بطوطة الذي كان في فاس في عام ١٣٤٩ سلطان المرينيد بقوله إنه كان يعقد مجلساً كل يوم بعد صلاة الفجر في المسجد الرئيسي). وبالرغم من أن المدارس الدينية انتشرت في العالم الإسلامي بدءاً من القرن الحادي عشر إلا أنها لم تكن موجودة في مناطق شمال أفريقيا ولا في أسبانيا الإسلامية - إلا بعد أواخر القرن الثالث عشر. كان سلاطين الميرندي متحمسين ومؤيدين لفكرة المدارس الدينية كما أن العديد من

المدارس المشهورة حصلت على تفويض منهم في القرن الرابع عشر. قد يكون سلاطين الميرنيد في شمال أفريقيا استعملوا المدارس كأداة مناصرة وتفضل لتشكيل مجموعة من الإداريين وأيضاً كأداة لإضعاف المعارضة الدينية. قد تكون هذه المدارس قد قدمت تعليم متقدم في المجال الديني إلى الطلاب الذين يأتون إليها من المناطق الريفية والذين كانوا على الأغلب يتحدثون لغة البربر. وكانت هذه المدارس طريقة لجلب رضا الخالق. ويشير تم ماكينتوش سميث في كتابه الرائع: «السفر مع المندرين اليوسفي إلى سلاطين المماليك في مصر» مع الإشارة أيضاً إلى فترة حكمهم المتميزة بعدم الأمان والاستقرار ويقول إنهم هرعوا إلى بناء قبورهم وغالباً ما أضافوا المدارس تمجيداً للخالق وقدره عليهم العائد من صالح الأعمال في الدار الآخرة. وهذا ينطبق أيضاً على الحكام في أي مكان من العالم الإسلامي .

كانت المدرسة النموذجية المغربية صغيرة وكانت مبنية حول موقع مركزي مرصوف بالرخام أو بالبلاط وتطل عليها مجموعة من الأروقة والشرف. وعادة كانت تضم نافورة أو بركة موجودة في وسط الفناء. أما الطوابق العليا من الأروقة فكانت تحتوي على غرف صغيرة شبيهة بالزنزانة يجلس فيها الطلبة والمدرسين. وإن الشيء الغريب في المدارس المغربية، إذا ماقورنت بمثيلاتها الأوروبية، هو زخرفتها ونقوشها التي تضفي عليها منظراً جذاباً. وصف / لوسيان غولغين/ المدرسة النموذجية الميرندية في كتابة «مدرسة العصور الوسطى (١٩٩٥) على أنها تفسير لواقع الحمراء. على أية حال يتضح من التسلسل التاريخي لأعمال البناء وللطريقة التي حدثت فيها الاتصالات الثقافية أن العكس هو الصحيح بمعنى أن قاعة الأسود في الحمراء هي تقليد للمدرسة الميرندية. أما الطوابق السفلية للمدرسة المغربية ففيها رسومات ونقوش دقيقة محفورة على الخشب وعلى قوالب الجص وعلى البلاط في حين أن الغرف العلوية تخلو من أي زخرفة أو رسومات (تماماً كما هي الحال في قاعة الأسود) .

بالإضافة إلى فكرة المدارس فقد أنشأ الميرنديس أبنية يطلق عليها اسم «الزويات». والزويات هي الأماكن التي يسكن فيها الصوفيين ويدرسون علوم الدين ويتأملون ويفكرون.

حدث في حالات عديدة أن مخطط «الزوية» كان يتداخل مع مخطط المدرسة. كما أن الصوفيين والعلماء المسلمين الآخرين كانوا يتقاسمون نفس البناء. وكانت الزوايا مزخرف ومزركشة على نحو ملحوظ ولم يكن هناك أي فرق كبير بين هذين النوعين من البناء .

كانت المدارس المغربية أبنية صغيرة. فقد كانت مدرسة بو انانية في فاس (١٣٥٠م-١٣٥٥م) حالة استثنائية من حيث الحجم. فقد كانت هي المدرسة الأكبر وآخر مدرسة من مدارس الميرنديس فقد تم بناؤها حول ساحة مرصوفة بالرخام وفي وسطها بركة من الماء. أما الجدران المحيطة بها والاروقة المعبدة فكانت مزركشة ومزينة بالقوالب الجصية المنقوشة وأيضاً بقطع البلاط. أما السقف فكان من خشب الأرز إضافة إلى اقواس مقرنصة. أما مدرسة دار المجزان (والتي بنيت بالقرب من قصر ميرنيد والتي تميزت بتدريب موظفي القصر) فكانت مزركشة ومزينة على نحو أجمل من المدرسة السابقة .

على أية حال فإن النموذج الأصلي لقاعة الأسود موجود في منطقة سالي وهو الميناء الرئيسي في المغرب. وهناك نقش وكتابات في المدرسة الصغيرة المزخرفة والمزركشة بشكل رائع والتي وجدها أبو الحسن في عام ١٣٣٣م (والتي لابد وأن يكون ابن الخطيب على علم بها). تفيد هذه الكتابات بالتالي :

«انظر إلى بابي الرائع ومتع ناظريك بالطريقة الدقيقة التي جمعت بها أجزائي وانظر إلى طبيعة البناء الساحرة وإلى الجمال الأخاذ في الداخل. فقد أنجز الحرفيون المهرة قطعة فنية فريدة من نوعها تتميز بجمال الشباب ...» وجاء في نقوشات وكتابات أخرى:
«إن روعة هذه المدرسة تربك العقل وتأسر النساك والعباد على حد سواء، لقد تم بنائي على شكل قصر متدرج يشع ببريق مثل صفوف من اللؤلؤ في جيد عروس أعدت ليوم الزفاف».

إذاً هذه الوصوفات تعادل الوصف الذي كتبه ابن الخطيب وابن زمرق عن الحمراء وعن زخرفة ساحة مدرسة سالي التي تعادل زخرفة قاعة الأسود. كتب ماكنتوش سميث في كتابه «سفر مع المندرين اليوسفي» في ذلك الوصف يقول : إن عبور العتبات وصولاً إلى الساحة مثل فتح لفافة من القماش في داخلها كتاب بألوان زاهية خضراء وسماء زرقاء ولون تركوازي وعاجي وآخر بلون القرفة . إن كل جزء من السطح مغطى بالنقوش أو بالبلاط

المزخرف بعدة ألوان وكأن مصمم هذه اللوحات تعرض لبلاهة رعب عصيبة. والتأثير الإجمالي الحاصل بمثابة كتيب أنيق غالي الثمن» .

١١- بنيت المدرسة أو كلية تدريس العلوم الدينية في سالي بالمغرب (عام (١٣٣٣) وإن جمال مداها وروعة زخرفتها لتدل على سمات الزخرفة المذكورة في قاعة الأسود في مجمعات الحمراء. إن هذا التوافق ليس وليد الصدفة بل يرجع ذلك إلى أن الوزير ابن الخطيب (الذي لابد وأن كان على صلة وثيقة ببناء قاعة الأسود) قضى معظم سنوات عمره في منفاه في ميناء سالي بالمغرب .

إن التشابه في الرسوم الجصية المتمثلة بالصياغة التخريمية في مدرسة سالي مع الرسومات والزخرفة في مجمع الحمراء بارز للعيان ويدل على وجود قاعدة مشتركة من المعماريين الفنيين. إن غوفين غير المولع بالفن الجصي الدقيق وبزخرفة القناطر المقرنصة الموجودة في المدارس قال إن هذه الزخرفة شبيهة بزخرفة مجمع الحمراء .

بُنيت أول مدرسة في غرناطة في عام ١٣٤٩ كما تدل بعض النقوش التي لازالت موجودة على ألواح الرخام في متحف الحمراء. جاء الصوفي / ابن مرزوق/ في عام ١٣٥٣ ليلقي درساً كما أن ابن زمرق درس فيها أيضاً (بالرغم من أن هذا البناء أزيل تماماً في بداية القرن الثامن عشر إلا أنه من الواضح أنه بُني على طراز مدرسة ميرنيد في شمال أفريقيا). وقد يكون غريباً بعض الشيء لو أن مدرسة من ذلك النوع غير موجودة في مجمع الحمراء تشير / سوزا/ إلى أن قاعة الأسود موجودة في الموقع الذي يمكن أن تكون المدرسة موجودة فيه باعتبار أنها قائمة في منطقة انتقالية بين قصر كوماريس ومنطقة الروضة أو حديقة المقبرة .

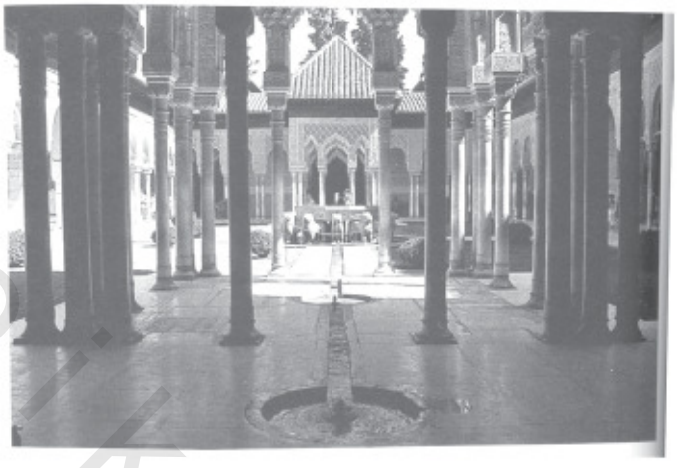

١٢ – هذا منظر من قاعة الأسود باتجاه الغرب، لقد اختفت القبة التي أضافها كونتريراس إلى الرواق المقنطر إلا أن ميلان السقف المرمم لايزال يشكل زاوية منحدر. تبدو في الصورة قنوات المياه التي تسير في فناء القاعة كما أن الأبنية المجاورة تعكس غياب تأثير الفرق بين الداخل والخارج .

إن قصر المدرسة، إذا كان ذلك حقاً هو الوضع على حقيقته، قد تكون محتوية أيضاً على مكتبة ملكية وعلى كتب موضوعة في كواة في الجدار وفي خزائن في / سالادي لوس ريز/ . لم تكن عادة المسلمين في العصور الوسطى أن يضعوا لكتب على الرفوف بل كانوا يضعونها فوق بعضها في صناديق يمكن قراءة اللوحات الجصية في السقف وعلى الجدران والتي تدل على أسماء الأدباء وأنواع مختلفة من الأدب. كانت مكتبة أسرة الناصريين الحاكمة مثل الكثير من المكتبات الإسلامية، قد دُمرت من قبل الكاردينال «سيسيزوس» الذي كان ينظر إلى الكتب العربية على أنها كتب كفر وشعوذة. وبعد أن أصبح هذا الكاردينال أسقفاً في غرناطة في عام / ١٤٩٩/ أشعل بالمخطوطات العربية ناراً هائلة في وسط ساحة المدينة .

وفي داخل مدرسة قاعة الأسود، يمكن أن تكون قاعة ابن سراج مكاناً للوعظ والخطابة أو مسجداً لأداء الصلاة. إن الفرضية التي تقول بأنه كانت تقام في هذه الغرفة أعمال دينية تعززها حقيقة عدم وجود قصائد شعرية علمانية لابن زمرق أو لأي شخص آخر. إذ إن النقوش والمخطوطات الوحيدة المكتوبة على الجدران هي نقوش قرآنية إذا

كانت غرفة لأداء الصلاة ولكن الغريب أنه لايوجد بها محراب. ولكن يجب أن نتذكر هنا أن المسجد الكبير في الحمراء كان على بعد خطوات وفي الجهة الأخرى من الشارع. فقد كانت السمة المشتركة بين مساجد المغرب أنها كانت تستخدم كأماكن للتدريس وكان شائعاً أن تبنى المدرسة بالقرب من المسجد لكي يتنقل المدرسون والطلبة بسهولة بين المسجد والمدرسة. من المحتمل أن مكتب المراقب أو المشرف كان في فناء دار الحريم وإلى الغرب من قاعة ابن سراج في الطرف الجنوبي من الساحة .

١٣- تبدو في الصورة المزهرية المشهورة للغزلان والموجودة حالياً في متحف الحمراء وهي واحدة من مجموعة مزهريات مجمع الحمراء. تم طلاء سطحها البراق كآنية خزفية بمادة الكوبالت (عنصر فلزي فضي) وبمادة أخرى لامعة. يبلغ ارتفاعها ١٣٥ سم وهي منحوتة من السيراميك وكانت تستعمل (مع مزهريات أخرى مشابهة) لتزيين قصور الحمراء .

لذلك قد يجدر بنا أن نستبعد من مخيلتنا الفتيات المغنيات المثيرات للحس الجنسي وحوراء العينين وهن مضطجعات على السجاد ونفكر بدلاً من ذلك بوجود حاجب يتصدق بنصوص قرآنية وبقطع من الخبز (غير المحتوي على خميرة) على الطلبة الذين أوكل إليه تدريسهم. يمكن أن تكون قاعة الأسود هي المكان الذي كانت تقام فيه الدروس والصلوات. يمكن أيضاً أن يكون البيروقراطيون قد تدربوا في ذلك المكان

على كيفية خدمة السلطان وتدرب فيها أيضاً المتحدثون الورعون واسعي المعرفة والاطلاع على كيفية تمجيد السلطان. وعلى شاكلة الرجال والنساء الذين وهبوا مالاً وقفاً على الكنائس في العصور الوسطى في إنكلترا، فقد أقدم المسلمون الورعون الأتقياء الذين أنشأوا المدارس على فعل نفس الشيء على أمل أن هذا العمل الخير سيساعد في خلاص أنفسهم من عذاب الجحيم. ومن خلال التشبيه مع الأنماط المغربية تعتقد / سوزا/ أن قبر محمد الرابع قد يكون موجوداً في قاعة ابن سراج. خلاصة القول إنه من المحتمل وليس المؤكد أن قاعة الأسود لم تكن قصراً بل كانت مدرسة أو كلية لتعليم الأمور الدينية. سواء أكانت قصراً أم لم تكن، فإنها تندرج تحت نفس التقليد الهندسي الذي تتميز به كلية التدريس الإسلامي الدينية وذلك بسبب التشابه الشديد بينها وبين مدارس ميرينيد في المغرب والذي لايمكن أن يخفى على أحد. لو أن تشارلز الرابع لم يدمر واجهة البناء فلا تكون هناك حاجة لهذا التساؤل بسبب وجود نقوش فوق أو بجانب المدخل. كانت مجمعات الحمراء عبارة عن مكان صممه الشعراء وسكنه الأدباء وأن العديد من هؤلاء الشعراء والأدباء انتهى بهم المطاف في نهايات مأساوية. لم يجد ابن الخطيب ولا ابن زمرق النعيم / الجنة في هذه الدنيا. فقد حان الوقت الآن أن ننظر في ثمار أعمالهما الأدبية وتأملاتهما الصوفية الروحانية .